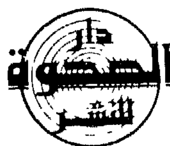
التواصل الحضارى
والحفاظ على الذاتية

أ.د. سعد الدين السيد صالح
عميد كلية أصول الدين بالزقازيق
ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

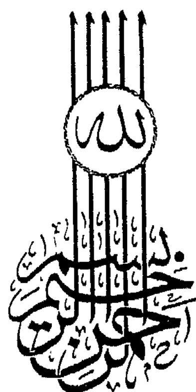


التواصل الحضاري
والحفاظ على الذاتية

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ ـــ ١٩٩٤م



دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة
الإدارة : ٧ ش السراى ـ أول المنيل ت . فاكس : ٩٢٤ ٩٨١١ ٤ ٩
الفرع : حدائق حلوان ـ بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وبعــــــــد

فإن الحضارات الإنسانية سلسلة متماسكة الحلقات يؤثر السابق منها في اللاحق، فهى متواليات من الجهد العقلى الذى يضم الجنس البشرى بكامله.

ومع ذلك فقد انطبعت كل حضارة بطابعها المميز المستمد من تصور أهلها للكون والحياة تلك التصورات التى تعطى لكل حضارة خصائصها وذاتيتها التى لا تشاركها فيها أية حضارة أخرى، اللهم إلا إذا اتحدت التصورات والمواقف الثقافية. ذلك أن التجارب الخاصة التى تمر بها الأمم لها دخل كبير فى تلوين الحضارات، ومن هنا يكون تأثر الأمم بهذا الجانب الروحى وهذا الطابع الخاص، معناه إعلاء لأمة على حساب أمة أخرى تذوب شخصيتها، وتتنازل عن هويتها عن طريق محاكاتها للآخرين.

ومن المسلم به أن الحضارة الإسلامية قد مثلت حلقة من أهم حلقات هذه السلسلة الحضارية، فقد تميزت عن غيرها بمميزات وخصائص فريدة فى ذاتها جعلتها حضارة إنسانية عالمية.

* فهى إنسانية فى طبيعتها وتشريعاتها؛ فقد تمثلت فى منتجاتها الفكرية والعلمية كل الخصائص الإنسانية :

ـ من حيث حرصها على مراعاة صالح الإنسان ـ كإنسان ـ بصرف

النظر عن دينه أو جنسه أو لونه.

- ومن حيث دعوتها إلى تحقيق الكرامة الإنسانية من خلال نداءاتها بسيادة قيم الحق والعدل والحرية والمساواة بين جميع البشر.

- كذلك كانت إنسانية من حيث شمولها واستيعابها لكل مجالات الفكر الإنسانى من العلوم والفنون والآداب والتربية والروحانيات والأخلاق وغيرها.

* وهى عالمية فى توجهاتها وأهدافها السامية التى تستهدف نشر الخير والنور والهداية على ربوع الدنيا.

* عالمية فى توجيهاتها ونظمها التى تتخطى حدود الزمان والمكان.

- فهى حضارة لا تعرف الشعوبية.

- ولا تقصر فى جانب من جوانب الحياة الإنسانية.

وهذا مايرشحها للعودة مرة ثانية إلى قمة الصدارة، وقيادة الإنسانية بعد أن فقدت حضارة الغرب هذه المقومات وبدأت فى طريق الانهيار وذلك بسبب:

- اهتمامها المركز على علوم المادة وإهمالها المتعمد لعلوم الإنسان.

- تطور العلم المادى عشوائياً دون تخطيط ونظر فيما يعود على الإنسان بالنفع أو يعود عليه بالضرر، فالعلم موجه الآن نحو دمار الإنسانية.

- استهتارها بالأديان والقيم الروحية والأخلاقية التى لا يمكن أن تنمو الحياة - نمواً سليماً - إلا فى ظلها، وباسم الحضارة اليوم تهدد آدمية الإنسان هنا وهناك، وباسمها تستعبد شعوب وتنهب ثروات وتصادر حريات.

إنها حضارة تشرف على الموت فلا ينتظر منها أن تحيى غيرها، ومن

هنا فلا عاصم اليوم من الفناء والانهيار إلا بالعودة إلى حضارة الإسلام، التى أنقذت البشرية قبل ذلك وفى نفس هذه الظروف التى نعيشها اليوم، ففى القرن السابع الميلادى كانت هناك الحضارة الرومانية الغربية والفارسية الشرقية، وكانت كل واحدة منهما تمثل قمة التقدم العلمى المادى فى عصرها وقمة التخلف الأخلاقى والقيمى، وكان المنقذ هو الإسلام الذى استفاد رجاله بالجانب العلمى من هذه الحضارات، ورفضوا الجانب الثقافى والأخلاقى، فأقاموا أعظم حضارة عرفها التاريخ فى أقصر فترة فى عمر قيام الحضارات.

وما أشبه الليلة بالبارحة!

الزقازيق فى ٢٦/٢/١٩٩٣م

أ.د سعد الدين السيد صالح
عميد كلية أصول الدين
ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

حتمية التواصل الحضارى

الحضارات البشرية سلسلة متصلة الحلقات، تأخذ كل واحدة منها بعضد الأخرى، ولا يمكن أن تنفصل هذه الحلقات، وإلا لوقف العلم وانتهى إلى حيث ينتهى الاتصال بينها.

فالحضارة التى استقلت بمفهومها استقلالاً تاماً ولم تعتمد على غيرها أو تتفاعل مع الحضارات السابقة لها واللاحقة عليها، هذه الحضارة لم تولد بعد، لأنه قد ثبت أن جميع الحضارات التى عرفها الإنسان استفادت من الحضارات الأخرى وأفادت تلك الحضارات[1].

وذلك خلافاً لما يراه شبنجلر من أن كل ثقافة هى تركيب عضوى من نوع خاص لا صلة له بالثقافات التى جاءت قبله أو الثقافات التى تجىء بعده[2].

ولا يقلل من شأن حضارة ما أن تستفيد من الحضارات السابقة عليها زمنيا؛ لأن طبيعة التطور الحضارى للجنس البشرى تستلزم ذلك.

---

(١) د. سعيد عاشور ـ المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارات الأوروبية، ص١٩، القاهرة ١٩٦٣.

(٢) محمد إقبال ـ تجديد التفكير الدينى فى الإسلام، ص١٦٤، القاهرة ١٩٦٨.

فلم يقل أحد مطلقاً بأن استفادة الحضارة اليونانية من الحضارات الشرقية القديمة تقلل من شأنها، كذلك لم يقل أحد: إن إفادة الرومان من حضارة اليونان قد انتقص من قدرها، أو أن استفادة الحضارة الغربية الحديثة من تراث الإسلام وحضارته قد حط من قدرها.

كذلك لا يستطيع أى منصف أن يقلل من شأن الحضارة الإسلامية لأنها استفادت من الحضارات السابقة عليها(١).

فقد امتازت الحضارة الإسلامية برحابة الصدر إزاء الحضارات الدخيلة، مع القدرة على التكيف مع هذا الدخيل أو نبذه ورفضه، إذا لم يقبل التكيف.

كما امتازت الحضارة الإسلامية بأنها حضارة بناء لا تغلق الأبواب فى وجه الثقافات الواردة، ولكنها لا تفقد أصالتها من خلال الامتزاج بهذه الثقافات.

يقول لامنس: إن المنصف لا يستطيع أن ينكر حق العرب؛ فقد أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم، وهى ذات وحدة خاصة وصفات فائقة(٢).

---

(١) المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارات الأوروبية، ص١٧.

(٢) راجع ص٣٥ من أضواء على الفكر الإسلامى ـ د. أنور الجندى. وقارن ص٢٤ من السنن النفسية لتطور الأمم ـ جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعتر، القاهرة ١٩٥٠، حيث يشير إلى أن لكل أمة مزاجاً ثابتاً تشتق منه مشاعرها وأفكارها ومنهجها الحضارى، قارن ص٤٠ و ٥١.

كيف يتم التوا صل بين الحضارات

اختلفت مواقف الباحثين فى بيان كيفية التواصل الحضارى: **فمنهم** من يرى أن التواصل لا يتم إلا بنسف القديم كلية وإحلال الجديد محله، **ومنهم** من وقف موقفاً سلبياً جامداً خائفاً من الجديد، أياً كان نوعه، مع محاولة الاحتفاظ بالقديم على ماهو عليه، **ومنهم** معتدلون وقفوا من الحضارة الجديدة موقفاً متوازناً، بحيث يأخذون منها ما لايتعارض مع هوية الأمة ومكوناتها الذاتية، وسوف نفصل هذه الاتجاهات الثلاثة فيما يلى:

الاتجاه الأول:

ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن التواصل بين الحضارات لايتم إلا بنسف الحضارة القديمة بكل مقوماتها وتراثها، وإحلال الحضارة الحديثة بكل ملابساتها محل الحضارة القديمة. وهذا الموقف يعبر عن الاستسلام والخضوع الكامل للحضارة الجديدة وهو ماتمثله تجربة (كمال أتاتورك) فى تركيا ومن تأثروا بالتجربة الكمالية فى العالم العربى.

وقد انبنى هذا الموقف بناءً على مفهوم خاطئ فى التطور والتقدم، فهو تطور مطلق لا يقف عند شىء ولا يبقى على شىء، تطور حتى فى الأسس الثابتة من العقائد والشرائع والأخلاق واللغة. إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه لكى يلائم مايريدون استيراده من الشرق والغرب، من عقائد وأفكار وقيم وموازين وأنظمة وتقاليد ومثل وأخلاق، وهذا

كله يتم تحت الزعم بأنه لا شيء ثابت على الإطلاق. وهـذا منهج خاطئ يفقد الحضارة قيمتها، لأنه يتغافل عن الثوابت التى لا تقبل التغير ولا التطور، علماً بأن التطور والثبات فى الحياة والكون من العناصر المتوازنة.

فهناك ثبات فى الحقائق والكليات، وتغير فى الصور والجزئيات، فإذا كان التطور قانوناً ثابتاً فى الكون والحياة، فالثبات أيضاً قانون قائم فيها.

وبهذه المزية تستطيع الحضارات المتعددة أن تتعايش وترقى وهى ثابتة على أصولها وقيمها، متطورة فى معارفها وأساليبها وأدواتها.

الاتجاه الثانى:

هو اتجاه الجامدين الذين وقفوا موقفاً سلبياً من الحضارة الجديدة بل موقفاً معارضاً لها على طول الخط، لا يقتبس منها شيئاً ولا يسمح بدخول علم من علومها ولا ينتفع بتجارب أهلها.

وهو موقف ينطوى على سوء تفسير للدين الذى يحث على استعمال العقل، واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره(١).

وخطأ أصحاب هذا الاتجاه وجنايتهم على الدين لا يقل عن خطأ أصحاب الاتجاه الأول؛ ذلك أن المجتمع الإنسانى إنما يتعرض للخطر نتيجة لأحد أمرين:

الأول: أن يجمد مامن شأنه التغير والتطور والحركة، وهذا ماحدث فى عصور الانحطاط والشُرود عن هدى الإسلام، فرأينا كيف توقف الاجتهاد فى الفقه، وتوقف الإبداع فى العلم، والأصالة فى الأدب،

---

(١) أبو الحسن الندوى ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص٩.

والابتكار فى الصناعة.

الثانى: أن يخضع للتطور والتغير مامن شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع فى عصرنا هذا أن فئة من أبناء المسلمين يريدون خلع الأمة من دينها وعزلها عن تراثها كله باسم التطور[1].

الاتجاه الثالث:

ويرى أصحابه أن الحضارات الإنسانية فيها العناصر المتغيرة القابلة للتطور، وفيها عناصر ثابتة هى التى تحدد ماهية الفكر وهوية الأمم، ولا يمكن لأمة من الأمم أن تتقدم إلا وهى مرتكزة على هذه العناصر الثابتة من حيث إن الجديد لا يمكن أن يقوم إلا على القديم، والحاضر دائماً هو ثمرة الماضى.

وهذه الذاتيات غير متطورة فى ذاتها، بل تتطور البشرية فى إطارها، وترتقى فى إدراكها وفى الاستجابة لها، يقول جوستاف لوبون «إن الشعب الذى يريد الرقى يجب ألا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه».

فالإنسان لا يستطيع أن يشكل صورة المستقبل دون أن يكون واعياً بظروفه الحاضرة وعمق ماضيه، وهذا ما أشار إليه لسيبنتز بقوله: «يتراجع المرء كى يثب عالياً، أى لابد للإنسان من الرجوع إلى الماضى ليقفز إلى المستقبل ـ ذلك أن فهماً جديداً للماضى يمنحنا فى الوقت نفسه استشرافاً جديداً للمستقبل»[2].

وهذا الموقف الأخير فى نظرى هو الذى يلائم التواصل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وخصوصاً إذا نظرنا إلى مركز الأمة

---

(١) د. يوسف القرضاوى ـ الخصائص العامة للإسلام، ص٢٤٤.

(٢) راجع ص٨٢ من الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، د. توفيق الواعى.

الإسلامية كخير أمة أخرجت للناس ـ فلا يجوز أن يكون مكانها فى مؤخرة الركب، وأن ترضى ـ بدلاً من القيادة ـ بالتقليد والاتباع، بل يجب أن يكون موقفها موقف المعتز بنفسه الذى لا يتعالى على الاستفادة من غيره ـ ولكن بإرادته واختياره، ويأخذ مايلائمه وما لايتعارض مع ثوابته ولا يؤثر فى شخصيته وثقته بنفسه، وبحيث لا ينشئ ذلك عنده شعوراً بالنقص أو الدونية، فهذا هو الموقف الذى عاشته الحضارة الغربية، حين تواصلت مع الحضارة الإسلامية واستفادت منها، وهذا ماسوف نوضحه فيما يلى:

التواصل الحضارى

نظرة تطبيقية

١. الحضارة الغربية والتواصل الحضارى:

ربما يعيب علينا أصحاب الاتجاه الأول: أننا نحاول الحفاظ على ذاتيتنا ويصفون موقفنا بالجمود والتخلف والرجعية والوقوف ضد التطور والتقدم مع أن هذا الموقف هو نفسه موقف الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية.

فحين ذهبت أوروبا تبحث عن نفسها لكى تجد لها مخرجاً من ظلام العصور الوسيطة، نجد أنها قد حافظت على ثوابتها الذاتية من خلال استمساكها بتراثها المادى، الذى ورثته عن سلفها اليونان والرومان، وإذا كانت أوروبا والغرب بصفة عامة قد انفصلوا عن الدين فذاك، لأنه اعتبر المسيحية دخيلة ووافدة، واعتبروا عيسى رجلاً شرقياً من بلاد الشام والعرب[1] فهو غريب عنهم، فلم يقبلوا هدايته ولا قيمه ولا أخلاقه ـ بل أخذوا من المسيحية اسمها وشعارها، وفى الوقت ذاته حافظوا على تراثهم المادى الذى ورثوه عن اليونان والرومان.

ومن هنا تشكل العقل الغربى من خلال الفلسفة اليونانية والأنظمة الرومانية. دون أن تكون لنبوة النبى الوافدة أى أثر على إخلاقهم أو

---

(١) وهذا ماعبر عنه أحد المعلمين فى ألمانيا وهو البروفسير (أترنى) الذى قال «لأى شىء يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية؟ ولماذا نقص عيهم قصص إبراهيم وإسحق؟ ينبغى أن يكون إلهنا أيضا ألمانيا» راجع ص١٠١ من الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام للمؤلف.

اقتصادهم أو اجتماعهم أو معتقداتهم. وإذا مااستقصينا مجمل الثقافة الأوروبية اليوم، فإننا سوف نجدها فى الثقافة اليونانية بلا فرق كبير.

- فظاهرة العداء بين الإنسان وبين الله واعتبار كل واحد منهما نداً للآخر، مأخوذة من أساطير اليونان التى صورت الآلهة حرباً عواناً على الإنسان.

- ونظرية أحادية الوجود المادى التى تشيع فى الفكر الغربى هى بعث لفكر المدرسة الطبيعية عند اليونان.

- ونظرية التطور عند انكسمندر بعثت من جديد على يد دارون ولامارك.

- ونظرية التغير والتطور المطلق هى بعث جديد لفكر هيراقليطس.

- ونظرية النسبية فى الحقيقة والقيم والأخلاق هى إحياء للفكر السوفسطائى.

- والشيوعية المنهارة كانت تجديداً وتزويقاً للجمهورية الأفلاطونية.

- وفلسفة اللذة والجنس هى محافظة على فكر المدرسة الأبيقورية.

إذاً فهناك هوية ثابتة للغرب، وتراث مقدس - فى نظرهم - حاولت الحضارة الأوروبية الحديثة أن تحافظ عليها، ولم تسمح لأى فكر مخالف باختراقها - حتى ولا نبوة عيسى عليه السلام.

وهذا هو الموقف الذى وقفوه أيضاً من الحضارة الإسلامية حينما تم التواصل بينها وبين حضارتهم فى أثناء الحروب الصليبية، وفى صقلية (جنوب إيطاليا) وفى الأندلس - فلم يأخذوا من الحضارة الإسلامية مايتعارض مع ثوابتهم الثقافية، وتراثهم القديم، فقد فصلوا بين العلم والثقافة ولم يأخذوا من الحضارة الإسلامية إلا الجانب العلمى التجريبى دون الجانب العقدى والثقافى والأخلاقى.

٢. الحضارة الإسلامية والتوا صل الحضارى:

لقد وقفت الحضــارة الإسلامية مع الحضارات السابقة عليـها موقفاً متوازناً ـ فلم ترفض الحضارات السابقة رفـضاً مطلقاً ولم تقبلها قبولاً مطلقاً، بل وقـفت موقفـاً علمياً انتـقائياً تأخـذ منها ماينفــع وتنفى منها خبثها، ولم يقبل المفكرون المسلمون أى فكر معارض للثوابت الإسلامية، وربما كان هذا هو السر فى حركة التوفيق التى قام بها فلاسفة الإسلام بين الفلسفة اليونانية وبين العقيدة الإسلامية ـ بصرف النظر عن نجاح المحاولة أو عـدمه فقد شكـلت المحاولة فى حد ذاتهـا موقفاً يؤكـد عمق الحـفاظ على الثـوابت الذاتيـة مع محـاولة الاسـتفـادة من تراث الفكر الإنسانى.

وإذا مــاستـعـرضنا الحـضارات التــى عايشت الإســلام فى بدايتـه وتواصلت معه، فإننا نحد أن هناك حضـارتين أساسيتين، هما:

ـ الحضارة الرومانية الغربية

ـ والحضارة الفارسية الشرقية.

وكانت الحضـارتان غنيتين فى العلوم والصناعات بالنسبة لعصرهما ـ وفى الثقافة والأدب وفى النظم الاجتمـاعية وفى أساليب المدنية، ولكن كـانت توجد أيضــاً فى هاتين الحـضارتين قـيم منهـارة، وإباحيـة فى الأخـلاق والأعراض والأمـوال ـ ومـصادرة لحـرية الإنسـان وانتهـاك لآدميته ـ وكانت هناك نظرات خاطئة إلى الكون والحياة والإله.

فماذا كان موقف المسلمين من هاتين الحضارتين؟

لقد وقف المسلمون من هذا التـراث الموقف العلمى الذى يمليه دينهم، فأخـذوا الجانب العلمى الذى ينفـعهم فى حـياتهم ويمكنهم من التـفوق

على أعدائهم[1] وأخذوا كل مايتفق مع روح دينهم - ولكنهم رفضوا سائر القيم المتهارة، وسائر النظريات والعقائد الباطلة.

وكان هذا الموقف معبراً عن الثقة فى النفس والبعد عن كل مركبات النقص التى يعانى منها اليوم بعض المسلمين فى موقفهم من الحضارة الغربية.

والخلاصة:

أن موقف المسلمين الأوائل من الحضارات السابقة كان موقفاً علمياً، فقد أخذوا بتوجيه رسول الله ﷺ حين قال: «الحكمة ضالة المؤمن إنى وجدها فهو أحق الناس بها»[2] فأخذوا من الحضارات السابقة مافيه صالحهم وما هم فى حاجة إليه من المسائل العلمية التجريبية، ولم يتأثروا بالجانب الثقافى والسلوكى والأخلاقى لهذه الأمم فترجموا علوم المادة واللسان والعمران التى تمثل الهيكل المتداول بين الحضارات، مثل الطب والهندسة والفلك والرياضة والحيوان والنبات. وحتى هذه العلوم وجهها الإسلام توجيهاً آخر إلى غاية أخرى غير تلك التى كانت فى عقول أصحابها، فقد كان فى عقول أصحاب هذه العلوم أن غايتها هى إخضاع الناس والسيطرة عليهم ونهب ثرواتهم وأموالهم وتحويلهم إلى خدم وعبيد، أما الإسلام فقد وجه هذه العلوم لخدمة أهداف الإنسانية جميعاً، وتحرير الإنسان من عبودية الفرد، ومنفعة الإنسان لا مضرته،

---

(١) يتضح من ذلك موقف الرسول ﷺ حين أمر بتعليم اللغات الأجنبية، وحين استفاد من الأطباء الأجانب، وحين أخذ بأسلوب الفرس فى القتال فأمر بحفر الخندق، كما يتضح من موقف عمر بن الخطاب الذى نقل عن الفرس تدوين الدواوين والتنظيم الإدارى وغير ذلك من المواقف الكثيرة.

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه .

وذلك انطلاقاً من التوجيه القرآنى العظيم: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾[1] ﴿**الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾.

وهكذا فعلوم التمكين والتسخير إنما ينبغى أن تستخدم فى تحقيق صالح الإنسان وهدايته إلى أقوم السبل.

المسلمون والتواصل الحضارى مع الغرب:

إن هذا الموقف الذى وقفه المسلمون الأوائل من الحضارات السابقة على الإسلام ينبغى أن يكون هو موقفنا اليوم من الحضارة الغربية، وأن يكون هو طريق التواصل بيننا وبينهم؛ فالحضارة الغربية اليوم تشكل مزيجا غريبا من أمور كثيرة، منها النافع المفيد ومنها الضار الذى لا خير فيه؛ ففيها المزيج من الصواب والخطأ فى النتائج والأحكام، وفيها من البديهيات فى العلم مالا يقبل الجدل والشك، ومن التخمينات والتحكمات فى الآراء والدعاوى التى تقبل الجدل والمناقشة.

وفيها الحقائق العلمية الصحيحة المختلطة بالنظريات التى لم يثبتها المنهج العلمى، وفيها مالا يختص بإقليم أو عنصر من علوم تطبيقية، مع مافيها من علوم ثقافية تجلت فيها الطبيعة الأوروبية، بما تحمله من ميراث السنين عن الآباء والأجداد الأولين، وبما أثر عليها من التجارب الخاصة التى اكتوت بنارها الأمة الغربية.[2]

ومن هنا يكون الموقف الإسلامى الرافض لكل شئ من هذه الحضارة موقفاً غير علمى، كما يكون الموقف القابل لكل شئ هو الآخر موقفاً

---

(١) سورة القصص ـ آية ٨٣.

(٢) أبو الحسن الندوى ـ مرجع سابق، ص٨.

انهزامياً، أما الموقف الصحيح فهو الموقف الانتقائى، الذى يفصل بين العلم والمدنية من جهة، وبين الثقافة والسلوك من جهة ثانية، فنحن فى حاجة إلى العلم التجريبى - ولكننا لسنا فى حاجة إلى الثقافة الغربية أو أسلوب معيشة الغرب.

والذين يطلبون منا أن نأخذ بحضارة الغرب على علاتها - علماً وثقافة - إنما يريدون لنا أن نتحرر من تاريخنا وتراثنا، مع أننا أصحاب ثقافة ربانية عشنا فى ظلها قروناً وقدنا الدنيا من خلالها، إننا لا ينقصنا اليوم إلا العلوم التجريبية التى كنا أصحاب منهجها فى أول الأمر[1] فلنأخذها من أى طريق، بشرط أن نوجهها وجهة إنسانية غير تلك الوجهة التى فى عقول الغربيين اليوم. وسوف نقيم الأدلة على صحة هذا الموقف الانتقائى من خلال حديثنا عن مفهوم الحضارة ومكوناتها فى الصفحات التالية.

---

(١) راجع ص٤٢ من كتاب «الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية» - الأستاذ أنور الجندى.

مفهوم الحضارة ومكوناتها

هناك تعريفات كثيرة للحضارة منها ما ركز على الجانب المدنى[1] والعلمى، ومنها ما ركز على الجانب الثقافى والأخلاق[2]، مع أن الحضارة لا تكون حضارة إلا بالجمع بين الجانبين معا، فهى فى الحقيقة مجمل مايصل إليه الإنسان من الرقى العلمى والثقافى والأدبى، أو هى الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة فى إطار التوجيه العقدى.

وهذا مايعبر عنه «البرت شفيتسر» بقوله: «إن الحضارة بصفة عامة هى التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء» وهذا يعنى أن الحضارة نشاط إنسانى إبداعى يسير فى خطين متوازيين فى وقت واحد، وهدفهما فى المحصلة النهائية هو الارتقاء بالإنسان، بوصفه يمثل كلا متكاملا لا انفصال فيه بين جانب المادة وجانب الروح[3].

---

(١) ومثاله تعريف ابن خلدون الذى يقول: «إن الحضارة هى التفنن فى الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو الفرش أو الأوانى» راجع المقدمة.

(٢) ومثاله تعريف الشيخ سيد قطب الذى يقول: «إن الحضارة هى ماتعطيه البشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم، تصلح لقيادة البشرية وتسمح لها بالنمو والترقى الحقيقيين، النمو والترقى للعنصر الإنسانى والقيم الإنسانية والحياة الإنسانية»، راجع ص٥٦ من «المستقبل لهذا الدين».

(٣)راجع ص٢٩ من بحث «الحضارة فريضة إسلامية» المنشور بمجلة المسلم المعاصر - العدد الثالث والستون، عام ١٩٩٢، د. محمود حمدى زقزوق.

مكونات الحضارة والتواصل الحضارى:

تتكون الحضارة من عنصرين أساسيين هما: الثقافة والعلم (المدنية).

- أما الثقافة فهى المعارف النظرية التى تؤخذ عن طريق الإخبار والتلقى والاستنباط العقلى، كالتشريع واللغة والتاريخ والفلسفة وغيرها من المعارف الإنسانية التى تؤثر فى سلوك الأفراد والجماعات(١)، وتشكل وجهة نظرهم فى الحياة، لأنها تتصل بالروح والفكر والعقل والأذواق والمشاعر، كما عرفها مالك بن نبى بقوله: «هى مجموعة من الصفات الخلقية والاجتماعية التى يتلقاها الفرد منذ ولادته(٢).

- وأما العلوم فهو المعارف العلمية التى تؤخذ عن طريق الملاحظة والتجربة، فهى الرقى فى العلوم التجريبية بهدف السيطرة على الطبيعة وإخضاع ظروف البيئة فيها للإنسان.

إذاً ففى أى عنصر من عناصر الحضارة يتم التواصل الحضارى بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية؟

والجواب: أن التواصل والاستفادة ينبغى أن تتم من خلال الجانب المدنى أو العلمى التجريبى.

---

(١) راجع ص٢٠٨ من المجلة العلمية لكلية أصول الدين ـ العدد الرابع ـ مقال د. جبر محمد حسن.
(٢) راجع ص٨٣ من شروط النهضة.

فلا بأس ـ بل مـن الواجب[1] ـ أن يأخذ المسلمـون من الغرب المنهج العلمى التـجريبى، والعلوم التجـريبيـة، التى تمكنهم من تسخـير الكون للإنسان وتمـكينه منه. ولكن بشرط واحـد: وهو أن يقيمـوا هذه العلوم على المنهج الربانى فى الغاية والهـدف، بحيث يستخدم الـعلم فى منفعة الإنسان لا فى مضرته، ومن أجل إقامة العـدل، وإقامة الحياة الإنسانية على قاعدة أخلاقية فى السياسـة والاقتصاد، والعلاقات الدولية، وبذلك تكون غاية العلم غاية ربانية.

فالإسلام لا يعرف العلم المجرد مـن الأخلاق، ولا يدفع إلى استخدام العلم استـخداماً ضـاراً يؤدى بالبشـرية إلى التنازع والفناء، وإنما يحث على العلم النافع المفـيد للإنسانيـة، ولذلك يقول الإمـام الغزالى «إن من الأسـباب فى صـيرورة العلم مـذمـوماً أن يكون مـؤدياً إلى ضرر إمـا لصاحبه أو لغيره»[2].

فالعلم فى الإسلام عـبادة يتقرب بها الإنسـان إلى الله، ولذلك يقول الرسول ﷺ : **«تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشـية وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة»**[3].

---

(١) لقد وجه القرآن أنظار الناس إلى أن المؤمن ينبـغى أن يكون قوياً عليمـاً، يملك وسائل العلم لتحـقيق خيـر الإنسان، وخدمـة الحق والعدل والدفاع عنه ضـد الباطل والظلم، ولقد بين لنا القرآن الكريم بعض النماذج البشرية التـى حققت هذه الغاية، مثل سيدنا سليمان الذى سخر الله له الكون، وذى القرنين الذى استخدم وسائل علمية فى إقامة سد استـخدم فـيه الحديد والنحـاس عمليات الانصـهار، وغيـر ذلك من التوجيـهات القرآنية نحو الكون ومحاولة ضبط السنن والقوانين التى تحكمه.

(٢) راجع ص١٣١ من كتاب « البحوث الأربية» د.محمد عبدالمنعم خفاجى.

(٣) رواه ابن عبرالبر بن معاذ «الترغيب والترهيب» جـ١ ص٥٨.

ومن هنا لم نحد أحداً من التجريبيين المسلمين الأوائل، من أمثال ابن سينا والرازى وابـن النفيس وغيـرهم، يتجـهون بعلمهم وأبـحاثهم إلى مضرة الناس، بل اخترعوا مافيـه صالح الناس ونفعهم على قدر طاقتهم وعلمهم وظروفهم، وهكذا ينبغى أن يكون موقفنا اليوم[1].

إذاً فنحن لا يمكن أن نرفض الحضـارة الصناعية الغـربية، ولا يمكن أن نتنكر لفضلهـا على الإنسانية، لأن هذه الحضارة ابتـداءً وليدة اتجاه الإسلام المبكر إلى العلم التجـريبى، هذا الاتجاه الذى انتقل إلى أوروبا ـ بشهادة أبنائها ـ عن طريق جامعات الأندلس ومدارس صقلية، ولأن هذا الإتجـاه العـلمى هو أصـلا وليـد نظرة الإسـلام إلى الكون والحـيـاة والإنسان، ودوره فـى هذه الأرض، ووليد طبيـعة المنهج الإسـلامى إلى «واقعيات» الكون وتدبرها والانتفاع بها.

وهو اتجاه مخالف تماماً لاتجاه الفلسفة الإغريقية التجريدية ومخالف كذلك للتصورات الكنسية التى كانت تجعل علوم الكون المادى (تصورات مقـدسة) لا يجوز المسـاس بها والخروج عليـها حتى ولو كـذبها الواقع ألف مرة ومـرة. بينما الإسلام يطلـق العقل البشـرى ـ فى هذا المجال ـ ليـبحث ويجـمع الشواهـد ويتتـبع الظواهر وينشىء القـوانين ويخطئ ويصيب بلا تجريم ولا تأثيم[2].

ولكننا فقـط نحذر من الروح التى يدار بها العـلم الغربى، وهى روح الانفصـال عن الدين والقيم الأخـلاقيـة، ولقد حذرنا القـرآن الكريم من حـضـارات قديمـة بلغت فى الـتقـدم المادى والعلمى وعـمـران الأرض وإثارتها شـأوها ـ ولكنها حـين فصلت بين العـلم وبين القيم الإيمـانية

---

(١) راجع ص٥٦ ومابعدها من كتابنا «البحث العلمى ومناهجه النظرية رؤية إسلامية».

(٢) الشيخ سيد قطب ـ الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١٧٨.

بادت وزالت من الوجود واقرأ فى هـذا قول الله تعالى: ﴿**أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾[1].

وقوله: ﴿**افلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم واشدّ قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون. فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون**﴾[2].

وقوله عن حضارة عاد: ﴿**أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون**﴾[3].

الثقافة والتواصل الحضارى:

أما الثقافة وهى الجانب الثانى من جوانب الحضارة، فهى التى تمثل الذاتية التى تطبع كل حضارة بطابعها الخاص، فهى الأمر الذى تتمايز فيه الحضارات والأمم، بحيث يكون هو المشكل لهوية الأمة وشخصيتها وسلوكها، ووجهة نظرها فى الحياة، ذلك أن للثقافة خصائص معينة

---

(١) سورة الروم ـ آية ٩.

(٢) سورة غافر ـ الآيات ٨٢ ـ ٨٤.

(٣) سورة الشعراء ـ الآيات ١٢٨ ـ ١٣٢.

تجعل التأثر بها وتقليدها قضاء على شخصية أمة لحساب أمة أخرى(1).

- فالعلم والمدنية لا أرض له ولا وطن ولا جنس - أما الثقافة فهى خاصة وذاتية، لذا نجد بعض الأمم تحرص على ثقافتها الخاصة، وتحاول نشرها بين الأمم، بينما تمنع أبناءها فى الوقت ذاته من التأثر بالثقافات الأخرى.

- العلم هو وظيفة العلماء التجريبيين من خلال مختبراتهم الخاصة، أما الثقافة فهى وظيفة الأنبياء والمرسلين والمصلحين وسائر المفكرين، الذين يعتمدون على الوحى أو العقل والاستنباط.

- العلم ينتج أشياء مادية ووسائل مدنية، أما الثقافة فتنتج سلوكاً وعلاقات اجتماعية، وسياسية وأخلاقية(2).

ومن هنا نلاحظ اختلاف الثقافة الإسلامية من الثقافة الغربية فى أمور كثيرة منها:

١ - اختلافها فى مصدر التوجيه.

٢ - اختلافها فى تصورها للكون والحياة.

---

(١) لأن الجانب الشقافى عميق الجذور فى النفس الإنسانية، وفى مشاعر الأمة وأحاسيسها - وبالتالى فتقليد أمة لأمة يكون على حساب الأمة المقلدة، فالثقافة تشمل الأفكار والقيم والمفاهيم والمثل، ولها معايير خاصة فى الطهارة والنظافة والاعتدال والاقتصاد والاجتماع والسياسة، وعادة ماتنبع هذه المعايير من تراث الأمم وأديانها وعاداتها وتقاليدها خلافا للمسائل العلمية والمدنية - فهى لا ترتبط بأمة ولا بتراث، بل هى مواريث عامة للإنسانية، ومن حق كل أمة أن تقتبس من هذه المسائل ماهى فى حاجة أليه، ولا يمكن أن يؤثر هذا الاقتباس على شخصية الأمة أو هويتها. وخصوصا إذا كان عند أبنائها الثقة فى أنفسهم، وكانوا بعيدين عن عقد الإحساس بالدونية والنقص.

(٢) راجع المجلة العلمية لكلية أصول الدين بالزقازيق - العدد ارابع ص٢٠٩.

٣ – اختلافها فى غايتها وهدفها.

– أما عن مصدر الثقافة الإسلامية: فهو الوحى السماوى المقدس من خلال مصدريه الأساسين: القرآن الكريم باعتباره الأصل والدستور، والسنة النبوية باعتبارها الشرح المفصل، والبيان العملى للقرآن الكريم.

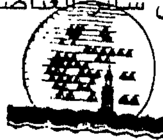
ثم تأتى بعد ذلك مصادر التشريع والتوجيه الأمرى مثل الاجتهاد، والقياس والإجماع، والاستحسان، والمصالح المرسلة وغيرها.

كما تشكل السيرة النبوية، والفقة الإسلامى، والتاريخ الإسلامى مصادر هامة لثقافة المسلم ولدفع حركته فى الحياة إلى الأمام.

وهكذا نلاحظ على مصادر الثقافة الإسلامية التنوع، فمنها الثوابت القطعية ومنها المصادر الاجتهادية البشرية، التى تفسح مجالاً لإرادة الإنسان وفكره وعقله، والتى تخضع للتغير والتطور وملاحقة المستجدات فى حياة الناس، وهى التى تتمثل فى المصادر الأخرى.

وبذلك تتميز الثقافة الإسلامية عن الثقافة الغربية، التى قامت بدء ونهاية على الفكر البشرى المتغير، دون أن تعتمد فى أى من جوانب حياتها على الوحى المعصوم.

ومن هنا فإننا نرفض من الثقافة الغربية ما يتعارض مع هويتنا الثقافية. وخصوصاً هذا الطابع المادى الذى طبع الثقافة الغربية، وعلومها فى الاجتماع والأخلاق، والنفس والفلسفة، والاقتصاد والسياسة، مما أدى إلى إهدار آدمية الإنسان وخصائصه الإنسانية العامة، وخصائصه الفردية، والنظر إليه كحيوان من نوع أرقى لا هم له إلا ماديات الحياة، دون النظرة المتكاملة إلى سائر العناصر التى يحتوى عليها الإنسان.



أما إذا كان هناك شيء نافع فى الثقافة الغربية، فلا مانع من الانتفاع به، فالإسلام كما قلنا دين حضارى يجعل الحكمة النافعة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ولكن على شرط ألا يخضع لها، بل لكى يخضعها لتصوراته ومنهجه، بحيث يستبقى منها ماهو فطرى وضرورى وصالح، ويستبعد منها ماهو طفيلى ومفسد.

هكذا فعل سلفنا الصالح حين واجهوا الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، وهكذا ينبغى أن نفعل اليوم ونحن نواجه الثقافة الغربية التى تريد رغما عنا ـ أن تخضعنا لها، وأن تعلى من قيمها على حساب قيمنا(١).

إذاً فليس معنى الحفاظ على الذاتية (الانغلاق الحضارى)؛ فالإسلام يسمح بالاستفادة من أى حضارة كانت، والتعاون مع أهلها مادام ذلك يحقق المصلحة الحقيقية للمسلمين، بل إن الانغلاق فى هذه الحالة يكون معارضاً لمقاصد الإسلام، التى تدور مع المصلحة والمنفعة للمسلمين حيث دارت.

– وأما عن تصور الثقافة الإسلامية للكون والحياة، فهو تصور واقعى ومتميز تماماً عن تصور الثقافة الغربية، حيث يقوم التصور الغربى على أساس أن الكون مادة وحسب تسيره قوانين الحتمية والتطور، وأن الحياة لا معنى لها إلا بمقدار ما يشبع الإنسان رغباته الحيوانية فى الإخضاع والسيطرة والهيمنة، وتحقيق أكبر قدر من الشهوات، حيث إنها مرحلة منتهية يموت الإنسان بعدها كما يموت البعير ـ مما أدى إلى اتسام الحياة هناك باليأس والقلق والعبث والتمرد والانتحار، ومعنى هذا أن الثقافة الغربية لم تفهم بعد طبيعة الحياة ولا

---

(١) راجع ص٢٩ من كتاب «احذروا الأساليب الحديثة» للمؤلف.

الحكمة منها، حتى إنه قد عقد مؤتمر فى جامعة «هارفرد» بأمريكا سنة ١٩٧٩ كان موضوعه «مامعنى الحياة فى أمريكا وما فلسفة التعليم وهدفه».

وعليك أن تستنتج من عنوان هذا المؤتمر معنى الضياع الذى يعانيه بلد كأمريكا مضى على استقلاله مايزيد على مئتى عام ولم تحدد بعد معنى الحياة، ولا فلسفة التعلم وهدفه[١].

أما الثقافة الإسلامية فنظرتها إلى الكون والحياة نظرة واقعية، ومتكاملة، حيث تقر بأن لهذا الكون إلها خالق وأنه هو الذى أودع فيه ما أودع من قوانين التسيير والحركة ﴿**وخلق كل شىء فقدره تقديرا**﴾ فهو قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله.

وبالتالى فالإنسان له وظيفة وله هدف فى الحياة، فهو عابد لربه ومعمر لكونه الذى استخلفه الله فيه من أجل العبادة والتعمير معا، ومن هنا فقيمة الحياة مرتبطة بأداء الوظيفة التى خلقه الله من أجلها ﴿**هو انشاكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾[٢].

وهذه الخلافة تقتضى الهيمنة، وعمارة الأرض والتحكم فى المادة، وإقامة العدل والإحسان والرحمة ـ والمحافظة على الحياة والسير فيها بقانون الله المستخلف للإنسان[٣].

يقول الله تعالى: ﴿**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾[٤].

---

(١) الشهيد عبدالله عزام ـ الإسلام ومستقبل البشرية ص٢٠.
(٢) سورة هود ـ آية ٣.
(٣) د. الواعى ـ مرجع سابق ص ٢٠٦.
(٤) سورة الملك ـ آية ١٥.

كما أن الحياة تستلزم أن يشبع الإنسان رغباته وشهواته، مادامت من الطريق الحلال الذى شرعه خالق الإنسان. فبينما يقول المسيح «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون» ويقول: «من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير» ويقول «لا يدخل الأغنياء ملكوت السموات».

أقول:بينما قال عيسى هذا الكلام، لمواجهة المادية المطلقة عند اليهود، فإننا نحد الإسلام لا يحرم الاستمتاع بالمتع الحلال.

يقول الله تعالى: **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾**(١)، **﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾**(٢)، **﴿يسالونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات﴾**(٣)، **﴿يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم﴾**(٤)، **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾**(٥).

وبهذا تتعامل الثقافة الإسلامية مع الإنسان فى واقعة، فهو ليس ملاكا ـ كما صورته نصوص الإنحيل وليس حيوانا كما تصوره الثقافة الغربية.

وهذا هو التصور المتكامل للحياة والكون، والذى يؤدى إلى الاستقرار، والسكينة والهدوء، ويبعد عن الإنسان القلق والخوف والشك **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم﴾**(٦).

---

(١) سورة الأعراف ـ آية ٣٢.
(٢)سورة الأعراف ـ آية ٣١.
(٣) سورة المئدة ـ آية ٤.
(٤) سورة المائدة ـ آية ٨٧.
(٥) سورة الكهف ـ آية ٤٦.
(٦) سورة التغابن ـ آية ١١.

كذلك وضعت الثقافة الإسلامية إجابات محددة عن أسئلة احتارت فيها الثقافة الغربية، ولم تصل بعد طول بحث إلى شيء يطمئن إليه القلب مثل:

السؤال عن بداية الكون ونهايته.

والموت وما بعده.

الحكمة من خلق الإنسان.

علاقة الإنسان بالإله.

وغيرها من التساؤلات التى عجزت الثقافة الغربية عن الإجابة عنها ـ مع أنها أسئلة فطرية فى عقل الإنسان. ولا شك أن نظرة الإنسان إلى الكون والحياة هى التى تحدد قيمة الحضارة، وفى هذا يقول (إلبرت شفيتسر): «وحينما يتهيأ لنا الوصول إلى نظرة قوية وثمينة فى الكون نجد فيها اعتقادا قوياً ثميناً، هنالك فقط يكون فى وسعنا إيجاد حضارة جديدة»(١).

ويقول (جوستاف لوبون): «وتكون المعتقدات الدينية فى كل وقت أهم عنصر فى حياة الأمم، وتولد مع كل مبدأ دينى جديد حضارة جديدة»(٢).

وهكذا يكون التصور الإسلامى المتميز للكون والحياة عنوانا على حضارة متميزة فى ثقافتها عن سائر الثقافات الأخرى.

– كذلك تميزت الثقافة الإسلامية عن الثقافة الغربية فى تحديد الغاية من وجود الإنسان.

---

(١) راجع كتاب: الثقافة العربية لأنور الجندى.
(٢) السنن النفسية لتطور الأمم ص١٥٧.

وحين تختلف النظرة إلى الغاية من وجود الإنسان تختلف النظرة إلى الحضارة.

- فالحضارة الهندية القديمة على سبيل المثال كانت غاية الوجود الإنسانى عندها مجرد الفناء فى الكائن الأعظم، والخلاص من ربقة الجسد، وإطلاق الروح لتتحد مع الخالق، ومن هنا أصبح مفهوم الحضارة عندها هو تحقيق عالم الروح على حساب الجسد، وعلى حساب الجانب المادى من عمارة الأرض والسعى فيها.

- والحضارة الغربية الحديثة ـ حددت غاية الإنسان فى الاستمتاع بالشهوات، بصرف النظر عن تحرى الحلال والحرام، وبدون تفرقة بين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، ولذلك كانت الحضارة عندها مجرد العمارة المادية للأرض، ومحاولة التغلب على الآخرين للاستئثار بأكبر قدر من المتاع الحسى، ومحاولة إخضاع الناس بالقوة والقهر العسكرى أو السياسى أو الاقتصادى أو العلمى ـ كما تفعل الحضارة الأوروبية اليوم فى الخليج والصومال وزائير، والسودان، وليبيا، والجزائر، والبوسنة وغيرها من بلدان العالم الإسلامى.

وفى هذه الحالة تصل الحضارة إلى مرحلة السقوط، لأنها أصبحت مادية، وعصبية، ومدمرة، وتكون أرقى منتجاتها وهى القنبلة النووية سقطة حضارية مشينة، لأنها تستخدم من أجل إخضاع الإنسان وإذلاله، مع أن الإنسان لا يرتقى فقط بإنحازه المادى مجرداً من القيم المعنوية.

فالحضارة ليست تطور الأدوات ووسائل الانتاج والمواصلات، ولكن الحضارة هى تحديد الغاية النبيلة من هذه المنتجات، بحيث توظف فى تعميق القيم الإنسانية أى القيم التى تجعل الإنسان متحضراً، أو كما قال

الأستاذ أنيس منصور فى مقاله المنشور بمجلة «أكتوبر»: «القاتل بالسكين كالقاتل بالقنبلة الذرية كلاهما مجرم - ولا يقال عن القاتل الذرى أنه مجرم متحضر، والقات بالسكين مجرم بدائى، لأن الحضارة ليست هى القنبلة الذرية، وإنما الحضارة هى تحريك الذرة لصالح الحياة - واستمرارها وبقاء القيم»[1].

إذاً مافائدة الاختراعات العلمية إذا كانت ستسيطر على عقل الإنسان وفكره؟ وتستعبده وتمنعه من استخدامها فيما يعود على الإنسانية جميعا بالنفع الحقيقى؟

إنها فى هذه الحالة - التى تضيع معها القيم - قد تكون سببا فى فناء الإنسان.الذى اخترعها.

وهنا نحد القرآن الكريم يضرب الأمثلة بأمم وحضارات وصلت إلى ماوصلت إليه من القوة المادية والصناعية - ولكنها حين عبثت بالقيم الإيمانية وانحرفت عن طريق الهداية الربانية، كانت العاقبة هى الدمار والفناء.

يقول الله تعالى: **﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون. فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون﴾**[2].

---

(١) العدد ٥٥١.

(٢) سورة غافر - الآيات ٨٢ - ٨٥.

– وأما الحضارة الإسلامية فقد حددت لوجود الإنسان غاية متميزة، وقد بين القرآن تلك الغاية فى قوله: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾[1].

وبذلك تضع الثقافة الإسلامية عنوانا جديداً للحضارة، وخصوصاً إذا فهمنا العبادة بمعناها الحقيقى الذى يستوعب سائر الأنشطة الإنسانية.

ذلك أن العبادة بمفهومها الضيق لا تأخذ من وقت الإنسان إلا ساعة أو أقل، بينما المطلوب من الإنسان أن تكون حياته كلها عبادة، كما أشار إلى ذلك أسلوب الحصر والقصر فى الآية الكريمة، وكما أشارت إلى ذلك آية أخرى ﴿**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتي لله رب العالمين**﴾[2].

ومن هنا تستوعب العبادة ـ فى مفهوم الثقافة الإسلامية ـ سائر حركات الإنسان وسكناته بما فيها من إقامة الشعائر وطلب العلم بمختلف أنواعه، وإقامة العدل بين الناس، وإقامة فنون نظيفة تستلفت الأنظار إلى جمال الله فى الكون والحياة، وتكون العبادة الكبرى المقصودة من وراء هذا التوجيه هى العمل فى شتى مناحى الحياة، ولكن بشرط أن يكون هذا العمل خالصاً لله وطبقا لمنهجه، وبهدف إعلاء كلمته.

ومن هنا تتميز الثقافة الإسلامية عن الثقافة الغربية، مما يؤكد ماقلناه سابقاً من أن الحفاظ على الذاتية ينبغى أن يتم من خلال الوقوف بحزم أمام أى ثقافة واردة لأنها تستهدف أساساً مسخ المسلم من

---

(١) سورة الذاريات ـ الآيات ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) سورة الأنعام ـ الآية ١٦٢.

عقيدته وأخلاقه وقيمه وأهدافه وفلسفته الخاصة.

ولا مـانع من التـواصل من خـلال العلم والمدنيـة، وكل مـالا يشكل تعارضا مع الثقافة الإسلامية التى تحدد كينونة المسلم وهويته.

ومن هنا ينكشف مـوقف أولئك التـغـريبيـين، الذين يريدون مـسخ الشـخصـية المسلمة من مقومـاتها وطبعها بالـطابع الغربى، تحت دعوى الانفـتاح على الغـرب، والتـجديد والمعـاصـرة والتطور، وغيـر ذلك من المصطلحات التى يراد بها غير معناها الحقيقى.

خصائص الحضارة الإسلامية

تميزت الحضارة الإسلامية بعدد من الخصائص التي جعلت منها حضارة عالمية، متميزة عن سائر الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً، فقد كانت الحضارة الإسلامية ربانية في مصدرها وتوجهاتها، إنسانية في أهدافها، شاملة لكل شأن من شئون حياة الإنسان، حريصة على تكريمه وإعزازه وتحقيق العدل والمساواة بين الجنس الإنساني، بصرف النظر عن القومية أو العنصر أو الدين أو اللون، ومن هنا استحقت أن تكون حضارة خالدة وباقية ما بقى الإنسان على هذه الأرض.

وسوف نفصل هذه الخصائص فيما يأتي:

١ - حضارة ربانية:

فهي تقوم أساساً على العقيدة الإسلامية، والشريعة المؤسسة على هذه العقيدة والأهداف التي تدعو إليها فيها من إقرار الحق والخير والنظام والعدل والحرية وسائر المثل الأخلاقية التي نادى بها الإسلام.

وبذلك تكون الحضارة الإسلامية ربانية في مصدرها وربانية في أهدافها وتوجهاتها. خلافاً للحضارة الغربية التي عبدت الناس للشيطان والأهواء والشهوات وشرعت لهم من النظم والقوانين مالم يأذن به الله، ولا يتفق مع فطرتهم التي فطرهم الله عليها. لأنها أعلنت موت الإله وتأليه الإنسان وهذا مابشر به نيتشه حين قال: «مات الله

وقد قتلناه، وإن الإنسانية تشيعه بمأتم حافل، ما الإيمان بالله إلا ضعف ونتيجة ضعف»[1].

ومن هنا أصبح الإنسان السوبرمان هو الإله الجديد، الذي إزال من وجه الحضارة الغربية المسحة الربانية.

وقد يعترض بعض العلمانيين ودعاة الفكر الليبرالي بقولهم: إن المسلمين يعتمدون على الغيبيات، وينتظرون فعل الأقدار ويسعون لتحقيق أهدافهم بالدعاء[2] وبذلك يصادرون الإرادة الإنسانية، ويثبطون همة الإنسان عن تغيير الواقع وتطويره إلى الأفضل، بل يوقفون قوى العقل ويحددون قدرة العلم؛ وذلك بما تفرضه هذه الخاصية من تعاليم جامدة ـ كما يقولون ـ وتشريعات صارمة تحد من الإنطلاق في مجال التمدن والحضارة والرقي[3].

ومن هنا فإن المسلمين إذا أرادوا أن يتحرروا من أسر هذا التخلف، فإن عليهم أن يتحرروا من الجمود الإسلامي، وأن يأخذوا بالنموذج الغربي[4].

نعم يقولون ذلك متجاهلين الحقائق التاريخية التي تدحض دعواهم، حيث إنه في ظل هذه الربانية، تمكن المسلمون من تغيير واقعهم بإرادة لم يقف أمامها إيمانهم بالله ولا تسليمهم بقضائه وقدره، بل إن تلك الربانية هي التي أيقظت العقل من سباته، دفعته إلى العمل الدءوب والتفكير في الكون من أجل ضبط قوانينه، وتكوين النظريات والابتكار

---

(١) راجع ص٣٢ من «هكذا تكلم زرادشت» فردريك نيتشه ـ ترجمة فليكس فارس ـ دار اعلم ببيروت.

(٢) راجع كتاب الخصائص العامة، د. يوسف القرضاوي.

(٣) د. محمود حمدي زقزوق ـ الحضارة فريضة إسلامية، ص٢٧.

(٤) المرجع السابق، ص٢٨.

والإبداع في شتى مناحى الحياة(١).

وهذا ما يتمثل في قول رسول الله ﷺ «أنتم أعلم بشئون دنياكم»حين مر على قوم يلقحون النخل فقال: «ما أظن يغنى ذلك شيئاً» فتركوا التلقيح، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوا»، فإني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن شيء عن الله فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل».

وبهذا يعطي الرسول ﷺ للعقل والتجربة والبحث استقلاليتهم، لكي يأخذ الإنسان بالأسباب التى ترتقي بالحياة المادية من جميع جوانبها ـ ولكنه مع كل ذلك عمل محاط بسياج الربانية، حيث يكون للإصلاح والنفع العام وليس للإفساد(٢).

وبذلك لا تكون الربانية سجنا للإرادة البشرية أو العقل الإنساني، بل تكون دائماً هي الدافع إلى يقظة العقل وحرية الإرادة. وهذا ما يسلمنا إلى الخاصية الثانية وهي الإنسانية.

٢ - حضارة إنسانية:

وإذا كان مركز الدائرة في الحضارة هو الإنسان من حيث إنه العنصر الإيجابي في العملية الحضارية، حتى قال بعض المفكرين: إن الحضارة تنتهي عندما تفقد في شعورها الإنسان(٣)، فإن الحضارة الإسلامية تمتاز بنزعتها الإنسانية الواضحة، وذلك من حيث:

- إنها قامت على أساس من العلم بهذا الإنسان علماً حقيقياً يعبر عن

(١) د. بكر ياسين ـ الحضارة الإسلامية العائدة، ص٨٤.
(٢) راجع ص٢٧٦ من الحضارة الإسلامية. د. الواعي.
(٣) الخصائص العامة، ص٦١.

فطرة الإنسان كما خلقه خالقه، ولأنها راعت خصائصه كجنس وخصائصه كفرد، خلافا للحضارة الغربية التي قامت على أساس من الجهل بحقيقة الإنسان ومطالبه الفطرية، ومن هنا جاءت نظرياتها التي أكدت على حيوانية الإنسان وتحقيره وتدنيسه، والسخرية منه باعتباره نفخة من روح الله.

- ولأن الإنسان في ظلها هو محور الكون من أجله سخر الله كل مافي السموات والأرض وكرمه وجعله أفضل المخلوقات.
- ولأن الإنسان في مفهومها حر مختار مريد مكلف مثاب ومعاقب على ماتكتسبه يداه بحريته وإرادته، وأثبات القدر المسبق لا يلغي دور الإرادة البشرية فمطلوب من الإنسان أن يعمل ويتحرك ويأخذ بالأسباب والمسببات بصرف النظر عما قدر في عالم الغيب.

وقد يظن بعض الناس ـ أن الوحي يلغي دور العقل الإنساني والإرادة الإنسانية، وهذا فهم خاطىء لإن العقل في ظل الحضارة الإسلامية جوهر محترم ومقدر، وإثبات الوحي والشرع لا يلغي دوره الإيجابي في فهم الوحي والاستنباط منه والقياس عليه.

وهناك أمور لا يمكن إثباتها إلا بالعقل: وهي الحقيقة الإلهية والنبوة والرسالة.

وفي مجال الشريعة تركت الحضارة الإسلامية للعقل مجالاً واسعاً في التشريع من خلال الاجتهاد والقياس والإجماع والمصالح المرسلة حيث يصول العقل ويجول فيفرع علي الأصول ويقيس على الفروع، ويكيف الوقائع بحيث يحقق المصلحة والمنفعة للإنسان(١) حتى ولو لم تكن مقيدة بنص من الشرع يدعو إلى اعتبارها أو عدم اعتبارها، مادامت تحقق صالح الناس، ولم تعارض قطعيا. إذاً فالحل الإسلامي

لمشكلات الحضارة لا يشترط فيه أن يكون منصوصا عليها في الكتاب والسنة - لكنه يكتسب صفة الإسلامية إذا لم يتعارض مع نص فيهما.

وفي هذا الصدد نذكر حواراً دار بين ابن عقيل وعدد من الفقهاء حول مفهوم السياسة الشرعية.

- فلقد قال أحد الفقهاء إنه لا سياسة إلا ما وافق الشرع.

- فقال ابن عقيل: السياسة ماكان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ﷺ، ولا نزل به الوحي[٢].

وهكذا تبدو لنا النزعة الإنسانية واضحة كل الوضوح في الحضارة الإسلامية، من حيث إتاحتها مثل هذه الفرصة للعقل والإرادة الإنسانية، وهي عملية يمكن أن نطلق عليها «اختيار حضاري للإرادة البشرية، هل ستحافظ تلك الإرادة على المصلحة المحلية والزمن الضيق وتكون محدودة البصيرة وهي تنظر إلي وقائعها، ثم وهي تحدد قواعد مستقبلها، أو ستكون تلك الإرادة سائرة على درب الكفاح الإنساني تصون بالعقل والشعور والمصلحة العالمية التي تخص الإنسان في أي مكان، ولا تنظر إلي مجرد اللحظة الحاضرة، بل تضع أعينها علي كل الأجيال اللاحقة حتي يرث الله الأرض ومن عليها»[٣].

وبهذا يتبين لنا أن إثبات الوحي والشرع لا يلغي كون الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية، لأن هناك أموراً لا يمكن أن يصل إليها الإنسان بوسائله المحدودة، ومن هنا يأتي الشرع كاشفاً عنها، وأموراً

(١) راجع ص٣٧٢، جـ٤ من إعلام الموقعين لابن القيم.
(٢) د. بكر ياسين، ص٩٢، مرجع سابق.
(٣) د. بكر ياسين، ص٩٢، مرجع سابق.

أخرى تقع في نطاق العقل الإنسـاني والإرادة الإنسانية، ومطلوب منه باسم الشرع والوحي أن يشمر عن ساعد الجد في البحث فيها.

وهذا خلافاً للحضارة الغربية التي جعلت المعرفة الإنسانية نداً للعلم الإلهي، فلم تأخذ بتوجيهه في أي مـجال من مجالات الحياة، مـما أدى إلى طبعها بطابع لا إنساني، لأنها تجاهلت الإنسان المخلوق المكرم الذي نفخ الله فـيـه من روحــه، وتعـاملت مـع الكيـان المادي فـقط في هذا الإنسـان.

- وتوصف الحـضارة الإسـلاميـة بأنها حـضارة إنسـانية، لأنهـا استوعبت أهداف البـشرية كلها، حطمت حاجز الزمان والمكان مـتعالية علي الأجناس والألوان والقومـيات، وهذا ماتفقده حـضارة الغرب بما تنطوي عليه من تصـور عن تحقيق أهداف الإنسانية، بمـا يشوبها من شوائب القومية والعنصرية، التي بدت أكثر وضوحاً في الآونة الأخيرة من خـلال الأحداث الجـارية في البوسنة والهـرسك، وفي الصومـال والخليج وفي فلسطين، ومن خـلال أبحاثهم المضللة عن تعـدد العروق الجنسية، ومدى تفـاوتها في القدرة العقلية والمشـاركة الحضارية في هذه المفاهيـم، التي تعد مسـوغاً للحـضارة الغربيـة لاستـعباد وقـهر الشعوب.

أما الحضارة الإسـلاميـة فتقوم على أساس وحدة الجنس والأصل والعنصر ﴿**كلـكم لآدم وآدم مـن تراب**﴾، ﴿**يأيها النـاس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحـدة وخلق منها زوجهـا وبث منهمـا رجالا كثيراً ونساء**﴾[1].

---

(١) سورة النساء ـ آية ١.

٣ - حضارة متوازنة وشاملة:

فبينما ركزت الحضارة الغربية علي الجانب المادي من الحياة، وأهملت تماماً عالم الروح بوصفه من الأمور الشخصية، التي لا علاقة ها بالواقع العملي بل اعتبرتها من معوقات انطلاق الحضارة، بينما الأمر كذلك في الحضارة الغربية، اهتمت الحضارة الإسلامية بالجانبين معاً ـ وتعاملت مع الإنسان كما خلقه ربه ـ نفخة من روح الله لها مطالبها وقبضة من طين الأرض لها ضروراتها، وربطت الحضارة الإسلامية بين الجانبين في توازن محكم يستهدف تقدم الحضارة ورقيها ـ فلا فرق في مفهوم الحضارة الإسلامية بين قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ وقوله: ﴿**فاسجد واقترب**﴾ وبين قوله تعالى: ﴿**وهو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ فكلاهما أمر واجب التنفيذ والعبادة والإيمان بالله ـ مع العلم بسنن الله في الكون وخواص المادة الذي يعين على فهم قوانين التعمير والتسخير واستخدام كل ذلك في عمارة الأرض ـ كل هذا يشكل جناحي الحضارة الإسلامية.

وهكذا تربط الحضارة الإسلامية بين الإيمان والعلم ربطاً محكماً، لأن الأمر ـ كما قال هنري برجسون بحق ـ: «إن فصل الدين عن العلم هو فناء محتوم للاثنين» وكما قال برنارد شو: «كنت أعرف دائماً أن الحضارة تحتاج إلى دين وأن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك»[١].

– ومن مظاهر التوازن والشمول في الحضارة الإسلامية هذا المنهج العجيب، الذي اعتمدت عليه في بحثها وتحصيل معارفها، حيث لم تغلق الباب في وجه أي منهج من مناهج المعرفة، بل اعتمدت علي

---

(١) الإسلام ومستقبل البشرية، ص١٦.

مناهج أربعة وهي المنهج العقلي المنطقي، والمنهج الحسي التجريبي والمنهج الذوقي الإشراقي والمنهج النقلي السماوي ـ مع النظر إلى هذه المناهج نظرة متكاملة، فلكل منها موضوعه ومعارفه ولا تعارض بين هذه المناهج؛ لأن كل واحد منهما يبدأ حيث ينتهي الآخر. وهذا خلافاً للحضارة الغربية التي اعتمدت على المنهج التجريبي فقط، وأهملت ماسواه من مناهج(١).

٤ ـ حضارة خالدة:

تميزت الحضارة الإسلامية عن سائر الحضارات السابقة أو اللاحقة بخاصية الثبات والاستمرار، وإذا كانت جميع الحضارات طبقاً لما يراه (محمد أسد) كالكائن العضوي، وأنها تمر بجميع المراحل التي يمر بها الكائن الحي من ولادة ونمو وشباب ثم شيخوخة فموت، لكي تفسح المجال لثقافات أخرى فإن هذه الخاصية لا تنطبق بأي حال من الأحوال على الحضارة الإسلامية، ذلك أنها منبثقة أساساً من الدين الإسلامي، وهو ثابت بعقيدته وأصوله وقواعده: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ فهي حضارة لم تنبع من منابع بشرية خالصة كما هو الحال في الحضارة الغربية التي نسمع الآن عن مبشرات بانهيارها وفنائها مع أن الحضارة الحقة التي تجتمع فيها الأرض مع السماء ـ لا يمكن أن تموت.

الحضارة التي تقوم علي أساس من القيم الخالدة، قيم الحق والخير والصلاح والفضيلة ـ لا يمكن أن تموت بل تظل خالدة خلود هذه القيم.

---

(١) راجع كتابنا «قصة الصراع بين منطق اليونان ومنطق المسلمين».
(٢) راجع الإسلام على مفترق الطرق، ص١٠٩

والحضارة التي تفتقد هذه القيم لا تستحق مجرد هذا الاسم العظيم «الحضارة». والحضارة هي اجتماع الأرض والسماء علي حقيقة الحق الكامن في الوجود، ومن ثم فإنها لا يمكن أن تكون مادية، أو لاأخلاقية، أو عصبية[1] كما هو الحال فيما يسمى الآن بالحضارة الغربية التي تعيش حالة من الاختلال والتوهان الذي يحيط بتصورها للإله، والإنسان والكون مما أدى إلى التصادم في العلاقات بين هذه العناصر الثلاث. وكانت الجناية على صانع الحضارة وهو الإنسان. الذي يعبر عنه الكاتب المسرحي الإنجليزي «أوسبورن» خير تعبير حين يقول عن الإنسان الغربي «نحن موتى، مكدودون، مضيعون، نحن سكيرون مجانين، نحن حمقى، نحن تافهون»[2].

ولقد صدق الله حين قال ﴿**فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾، ﴿**وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾.

مراحل ثلاث مرت بها الحضارة الغربية وهي

- نسيان الله والفرار من تعاليمه.
- فتح أبواب النعم عليهم ـ ولم يعترفوا بالنعم.
- الانحلال والانهيار الذي يعقبه الاستبدال.

فهل يعتبر المسلمون ويقومون بواجباتهم الحضارية خاصة وأن الزمان قد استدار كهيئة يوم بعث رسول الله ﷺ ؟

---

(١) د. بكر ياسين ـ مرجع سابق، ص١٦.
(٢) راجع فوضى العالم ـ لعماد الدين خليل، ص٤٩

المصادر والمراجع

١ – المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية – د. سعيد عاشور

٢ – تجديد التفكير الديني في الإسلام. –محمد إقبال

٣ – أضواء على الفكر العربي الإسلامي – أنور الجندي

٤ – الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية – أبوالحسن الندوي

٥ – الخصائص العامة للإسلام – د. يوسف القرضاوي

٦ – الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية – د. توفيق الواعي

٧ – الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام – د. سعدالدين صالح

٨ – الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية – أنور الجندي

٩ – مقدمة ابن خلدون

١٠– المستقبل لهذا الدين – الشهيد سيد قطب

١١– الحضارة فريضة إسلامية – د. محمود حمدي زقزوق

بحث منشور بمجلة المسلم المعاصر العدد الثالث والستون.

– العدد الرابع

١٢– المجلة العلمية لكلية أصول الدين – مالك بن نبي

١٣– شروط النهضة – د. سعد الدين صالح

١٤– البحث العلمي ومناهجه النظرية – د. محمد عبدالمنعم خفاجي

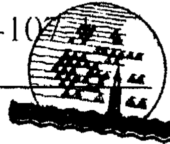
١٥– البحوث الأدبية – الشهيد سيد فطب

١٦- الإسلام ومشكلات الحضارة	- الشهيد عبدالله عزا
١٧- الإسلام ومستقبل البشرية	- جوستاف لوبون
١٨- السنن النفسية لتطور الأمم	- فردويك نيتشه
١٩- هكذا تكلم زرادشت	- ابن القيم
٢٠- إعلام الموقعين عن رب العالمين	- د. سعدالدين صالح
٢١- قصة الصراع بين منطق اليونان ومنطق المسلمين	- محمد أسد
٢٢- الإسلام علي مفترق الطرق	- عماد الدين خليل
٢٣- فوضى العالم	

الفهرس

رقم الإيداع : ٤١٨٠ / ١٩٩٤م

I.S.B.N : 977-255-107



مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٢١ . ٣٥٦٢٢٠ . ٣٥٦٢٣٠

ص ب ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨